﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الإعـلامُ بقُـرْب يـومِ الـتَّـلاق، وبـيـانُ حـالِ الظّالِمين فيه

بعد أن أكّدتِ الآيةُ السّابقة أنَّ اللّه تعالى سيُجازي الخلائقَ يوم التّلاق على ما عملوه في الدّنيا، جزاءً عادلًا لا ظُلمَ فيه، ولا بُطءَ معه؛ ناسبَ أن يُؤمَر الرّسولُ ﷺ بإعلام النّاس بشدّة اقترابِه، مع ذِكْر بعضِ أهواله، وبيانِ أحوال الظّالمين فيه؛ ليتأكّد أنّه – مع ثبوته وثبوت التّلاقي فيه – قريبٌ جِدًّا؛ تحذيرًا من تَزيين إبليسَ للشّهوات، وإغرائه بالتّسْويف بالتّوبة، وعدم الاستعداد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأٓزِفَةِ﴾: (أزف) يدُلُّ على الدُّنوِّ والمُقارَبَةِ، يُقالُ: أزِف الرَّحيلُ: إذا اقْتَرَبَ ودَنا. قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧﴾ [النّجم: 57]، يعْني: القيامَةَ، وسمّيت به لقُرْب وقوعِها، ولذلك عُبِّر بها عن السّاعة، وعبّر بالماضي لقُربِها وضيقِ وقتِها، قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقال: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾[2].

2) ﴿لَدَى﴾: (لدى) كـ(على)، وهو ظرف مكانٍ كـ(عِنْد)[3]، ومعناه: المكان الذي يكون فيه الشّيء، أي: يحتبس فيه الشّيءُ ويمتَسِك، قال تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: 25]؛ أيْ: عنده[4]، غير أنّه يختصّ بالقريب، وهو المعنى المراد بالآية.

3) ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾: جمع حَنْجَرَة، وهي رأس الغَلْصَمَة من الخارج،

(1) البقاعيّ: نظم الدّرر: 17/ 30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أزف).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 426.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لدى).

وقيل: جَوْفُ الحُلْقوم. ومعناه المحوريّ: فراغٌ مستطيلٌ كأنّه قناة، يمتد في جَوْفٍ كثيف: كما في الحَنْجورة والحَنْجَرة، وبلوغُ القلوبِ الحناجرَ: مبالغةٌ في اضطرابها ووجيفِها دون أن تنتقل من مَقرّها إلى الحَنْجَرة، وقيل: إذا انتفخت الرّئةُ من شدّةِ الفَزَع أو الغضب، رَبَتْ وارتفع القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحَنْجَرة[1]، وهو المعنى المراد هنا.

4) ﴿كَٰظِمِينَ﴾: (كظم) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على الإمساك والجَمع لِلشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ: الكَظْمُ: اجْتِراعُ الغَيْظِ والإمساكُ عَنْ إبْدائِه، وكَأنَّهُ يجْمَعُهُ الكاظِمُ في جَوْفِهِ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134][2]، والكَظْمُ: مَخْرَج النَّفَس، يقال: أخذ بكَظَمِهِ، والكُظومُ: احتباسُ النّفَسِ، ويُعَبّر به عن السّكوت، وكُظِمَ فلانٌ: حبس نفسَه[3]، وهو المعنى المراد في الآية.

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حم) أَحَدُ أُصولِهِ الحَرارَةُ، والآخَرُ: الدُّنوُّ والحُضورُ[4]، فالحميم: الماءُ شديدُ الحرارة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: 4]، ومن الآخر قولُه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101]، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية[5].

6) ﴿شَفِيعٍ﴾: (شفع) أَصْلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ: الشَّفْعُ خِلافُ الوِتْرِ. تَقولُ: كانَ فرْدًا فشَفَعْتُهُ، وشَفَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ إذا جاءَ ثانيهُ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَهُ ومُعينًا لَهُ[6]. قال تعالى: ﴿لَا تُغْنِ شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: 26]. وقوله هنا: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾[7]؛ أيّ: مساعد معين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يأمرُ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ بإنذار النّاس وتحذيرِهم من أهوال يوم عظيمٍ، قريبِ الوقوع، تكون قلوبُهم فيه مرتفعةً عن مواضعها من صدورهم، ومُتشبّثةً

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (كظم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حم).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (حم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن: (شفع).

بحناجرهم، وهم يُمسكون بها ويكتمون أنفاسهم، حتّى لا تخرجَ قلوبُهم معها، كما يمسكُ صاحبُ القُرْبة فمَها لكي لا يتسربَ منها الماءُ، كما تُبيّنُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ الظّالمين ليس لهم في هذا اليوم قريبٌ أو مُحِبٌّ يَعطِف عليهم، ولا شفيعٌ يُطاع في الشّفاعة لهم؛ لأنّهم في هذا اليوم يكونون محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم؛ بسبب ظُلمِهم وإصرارِهم على كفرهم[1].

ليس للظّالمين حَبيبٌ ولا شفيعٌ يـومَ الـتّـلاق، الـذي تبلغ فيه قلوبُهم الحناجرَ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في صدر الآية:

الواو في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يمكن أن تكون لعطف ما بعدَها على جملة: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر: 15]، بقصد بيان شدّة اقتراب هذا اليوم، وتوضيحِ أحوالِ الظّالمين فيه؛ تحذيرًا للنّاس من الظّلم، وترغيبًا لهم في اتّباع الحقّ. ويمكن أن تكون الواو استئنافيّةً، والكلام بعدَها مستأنفٌ للتّنبيه إلى شدّة اقتراب يوم التّلاق، وأنّ أحوال الظّالمين فيه عصيبةٌ، ولن يكون بإمكان أحدٍ إنقاذُهم ممّا هم فيه.

يـوم الـتّـلاقِ قـريـبٌ وإن بدا أنّه بعيد، فكلّ آتٍ قريبٌ

دلالةُ الأمر في ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾:

الأمر بالإنذار في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الدّالُّ على الإعلام المقترن بالتّخويف والتّحذير، فيه تكليفٌ للرّسول بإنذار النّاس باقتراب يوم التّلاق والمداومةِ عليه، لما فيه من إحْسانٍ من المُنْذِر، ولأنّه كلّما كانَت المخافةُ أشدَّ كانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ[2]؛ لما يترتّب عليه من الاستعداد لهذا اليوم بعمل الصّالحات، واجتنابِ المظالم والسّيّئات.

كُـلَّـمـا كـانَـت المـخـافـةُ أشـدَّ، كـانَـت الـنِّـعْـمَـةُ بالإنذار أعظمَ

مرجعُ الضّمائر في ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾:

فاعلُ الإنذار في: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ هو الضّمير المستَتِرُ وجوبًا، والعائدُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 274، 275.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.

إلى الرّسول ﷺ، والذي يدخل فيه أتباعُه والمؤمنون به في كلّ زمان ومكان بالأَنْسَاء، و(هُم) ضميرٌ مبنيٌّ في محلّ نصبٍ، مفعولٌ به أوّل لفعل الإنذار، يُقصَد به: النّاس أجمعون، ويدخل فيهم الكافرون والعُصاةُ من قوم الرّسول وأُمّتِه دخولًا أوّليًّا بُرهانيًّا.

الرّسولُ وأتباعُه مُكلّفون بتخويف النّاس جميعًا من أهوال يوم التّلاق

بيانُ مفعوليّ الإنذار:

الضّمير (هُم) في قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ هو المفعولُ الأوّل لفعل الإنذار، أمّا قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ فيجوزُ أنْ يكونَ مفعولًا به ثانيًا على سبيل التّوسّع في معنى فعل الإنذار، بتضمينه معنى التّخويف، ويجوز أنْ يكونَ ظرفًا، والمفعولُ محذوفٌ، تقديرُه: (عذابَ يوم الآزفة)[1]. وأيًّا كان الإعرابُ فالمُراد توجيهُ الرّسول ﷺ إلى تخويف النّاس بعامّةٍ، ومشركي قومِه بخاصّةٍ من يوم التّلاق، وبيانُ ما فيه من شدائدَ وأهوالٍ، يُعَدُّ الجميع عُرضةً لها إذا لم يُحسنوا الاستعدادَ له.

النّاسُ جميعًا عُرْضَةٌ لأهوال يوم التّلاق إذا لم يُحسنوا الاستعدادَ له

نُكْتَةُ التّقديم والتّأخير بين مفعوليّ الإنذار:

جاء البيانُ الكريم بضمير الغائب العائد إلى النّاس (هُم) مُقَدَّمًا على ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾؛ لأنّ الاهتمام موجّهٌ إلى تخويف النّاس من أهوال ذلك اليوم وشدائده، كما أنّه مُنصبٌّ على تنبيههم إلى ضرورة الحَذَر وعدمِ التّسويف في الاستعداد له.

القرآنُ الكريمُ مُهتمٌّ بإنذار النّاس وتخويفِهم من هول يوم التّلاق

معنى (أل) في ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾ لتعريف العهد، وفيها دلالةٌ على أنَّ المراد بـ ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ هو يومُ التّلاق الذي سبق حديثُ القرآن عنه فيما تَقَدَّم من آيات، ووجهُ تسميته بـ ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ الإشارةُ إلى قُرْبِ وقوعِه، والإشعارُ بضيق الوقت بين النّاس وبينَه[2].

الوقت الباقي على وقوع يوم التّلاق ضيقٌ جِدًّا

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 466، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 272.

سِرّ العُدول عن ذِكْر الموصوف:

مَـن مـات فقد حضرت ساعتُه، وقرَّبَهُ الموتُ من قيامته

عُدِلَ عن ذِكْر الموصوف وأُقيمت الصّفةُ مقامَه لعِدّة أمور؛ منها: أنّ الموصوف المحذوف قد قام الدّليلُ عليه، وشهدت الحالُ به؛ فصار ذِكْره من الإطناب، والمقامُ للإيجاز والاختصار، فحَسُنَ الحذفُ ووقعَ من الكلام موقعَهُ؛ ومنها: انتفاءُ اللّبْس مع الحذف فَحَسُن. ومنها: أنّ الصّفة هنا مظروف، واليوم مفعولٌ فيه ظرف، وبدهيٌّ أنّ في الإطلاق المُجرّد للنّعْت بلفظه برهانَ وقوعِه المقتضي التّصديقَ به، من حيثُ إنّ معنى ﴿ٱلْآزِفَةِ﴾ المُقتربة، وأوّلُ مبادئ ذلك ومَداخِله الموتُ، وهو دائمُ الوقوع متعدّدٌ، ومَن مات فقد حضرت ساعتُه، وقرَّبه الموتُ من قيامته، كما قال تعالى على معنًى من التّأويل سائغ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]؛ فتَمّ المقصودُ بذِكْره مُقتَصَرًا عليه؛ فبلغ مبلغَه في الإيجاز والإعجاز.

معنى ﴿إِذِ﴾، وموقعُها الإعرابيّ:

وصـولُ القلوب لـلحـنـاجـر هـو الحال الحاصلةُ لـلـنّـاس طـيـلـةَ يوم التّلاق

﴿إِذِ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾، فهو اسْمُ زَمانٍ مَنْصوبٌ، مُضافٌ إلى جُملَة: ﴿ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾. ويمكن أن يكون بدلَ اشتمالٍ مِنْ (هُم) في ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾[1]. وأيًّا كان الإعرابُ، ففي التّعبير به دلالةٌ على أنَّ ارتفاع قلوبِ النّاس من أماكنها، ووصولَها إلى حناجرهم، هو الحالةُ الحاصلة لهم طيلةَ يومِ التّلاق، بسبب ما فيه من شدائدَ وأهوالٍ، ما يدلُّ على أنّ النّاس في هذا اليوم يجتمع عليهم أمران يزيدان خوفَهم ورُعبَهم؛ أوّلهما: أهوال يوم التّلاق وشدائدُه. والآخر: مقاومتُهم خُروجَ الرّوح، ومحاولةُ إمساكِها في الحناجر، وبدلالة النّصِ عليهما يبلغُ الخَوفُ قِمتَه، ويحدثُ الأثرُ المَرجوُّ، وهو عدم التّكذيب بهذا اليوم، واتّباعُ الرّسول الذي يُنذر باقترابه.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ لتعريف العهد، وبها عوِّضَ تَعْريفُ الإضافةِ بتَعْريفِ العَهْدِ، لأنّ التّقدير: إذِ قُلوبُهُم، والمعنى: إذْ قُلوبُ الَّذينَ تُنْذِرُهُم، يعْني المُشْرِكينَ، فأمّا قُلوبُ الصّالِحينَ يوْمَئِذٍ فمُطْمَئِنَّةٌ[1]. ويمكن أن يكون المُراد قلوبَ كلِّ مَنْ حضر في هذا اليوم إلّا مَن شاء الله[2]، فتكون (أل) لتعريف الجنس. وأيًّا كان المراد ففي التّعبير دلالةٌ على أنّ أهوال هذا اليوم تنخلع منها قلوبُ النّاس بعامّةٍ، وقلوبُ منكريه بخاصّة.

أهـوال القيامة تـنـخـلـع منـها قـلـوبُ الـنّـاس بعامَّةٍ، وقلوبُ منكريه بخاصّة

الموقع النّحويّ لـ ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ وما بعدَها:

جملة: ﴿ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ في محلّ جَرٍّ بالإضافة إلى ﴿إِذِ﴾، و﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ مبتدأ، و﴿لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ خبرُه[3]، وفيها دلالةٌ على أنَّ قلوبَ كثير من النّاس لن تكون في أماكنها المعتادة من الأبدان يومَ التّلاق، وأنّها ستَترك تلك الأماكنَ من فَرْط الهَوْل وشِدّة الكَرْب، وترتفعُ إلى الحناجر والحلاقيم.

قـلـوبُ كثير من النّاس لن تكون فـي أمـاكـنـهـا المُـعـتـادة يـوم التّلاق

دلالة التّعبير بـ ﴿لَدَى﴾:

التّعبير بـ ﴿لَدَى﴾ يدلُّ على أنَّ "القُلوبَ يشْتَدُّ اضْطِرابُ حَرَكَتِها مِنْ فرْطِ الرُّعْب والجَزَع، ممّا يُشاهِدُهُ أهْلُها مِنْ بَوارِقِ الأهْوالِ، حَتَّى تَتَجاوزَ القُلوبُ مَواضِعَها صاعِدَةً إلى الحَناجِرِ، وتَسْتَقِرَّ عندها، كما قالَ تعالى في ذِكْرِ يوْمِ الأحْزاب: ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10][4]، وفي التّعبير به أيضًا دلالةٌ على أنَّ هذا الرّعب يحدث على وجه غريب في بواطن الأجسام ودواخلها[5].

الـرّعـبُ والـهَـلَـعُ يـحـدث يـومَ الـتّـلاق في بواطن الأجسام ودواخلها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، والسّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ يمكن أن تكون لتعريف العهد، والتّعريف بها عِوَضٌ عَن التَعْريفِ بالإضافةِ، لأنّ التّقدير: (إذِ قُلوبُهم وحَناجِرُهُم)[1]، والمعنى: تبلغُ قلوبُ منكري البعث والحساب حناجرَهم المعروفةَ المعهودة لهم ولغيرهم. ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، فيكون المُراد: تبلغ قلوبُ النّاس جميعًا في يوم التّلاق حناجرَهم، إلّا من شاء الله سبحانه، وفيه من زيادة الرّعب المُفضي إلى الحَذَر والتّنبُّه والاستعداد، ما لا يحتاج إلى مزيد بيان.

من عادة البيان القرآنيّ بثُّ الرُّعب في النّفوس بقَصْد التّنبيه والتّحذير من يوم التلاق

دلالة التّعبير بـ ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ مادّةً وصيغةً:

في التّعبير بـ ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ الدّالِّ على شدّة الإمساك والحرص على عدم الإفلات، اسمًا مشتقًّا، إشارةٌ إلى ثبوت الظّالمين على هذا الفعل، ومداومتهم على "كظم حَناجِرِهم إشْفاقًا مِنْ أنْ تَخْرُجَ مِنْها قُلوبُهُم مِنْ شِدَّةِ الاضْطِراب"[2]، ما يَدلُّ على أنّهم في رُعبٍ وفَزعٍ طيلةَ اليوم المُتَحَدَّث عنه. وأوثِر التّعبير عنه بصيغة جمع المُذكّر السّالم؛ لأنّ الحديث - وإن كان في الظّاهر عن القلوب - فإنّه في الحقيقة عن أصحابها، ومن ثَمّ جُمِعَ على طريقة جمع العقلاء، وزاده حسنًا أنّ القلوب محلُّ الكَظْم، وبها صلاحُ الجملة وفسادُها[3]. يزاد على ذلك: أنّه "وصَفَها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء"[4].

الظّالمون في رُعبٍ وفَزعٍ طيلةَ يوم التّلاق

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾:

اختلف النّحاةُ في إعراب: ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾، فقيل: حالٌ من الضّمير المُسْتكِنِّ فيه، وقيل: حالٌ من ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾، والمعنى: أنَّ القلوبَ كاظمةٌ

الظّالمون يوم التّلاق يكونون في هولٍ مضاعَفٍ، وكَرْبٍ مُرَكَّبٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157.

على غَمٍّ وكَربٍ فيها، مع بلوغها الحناجر، وقيل: حالٌ مِنْ أصحاب القلوب، على معنى: إذْ قلوبُهم لدى الحناجر كاظمين عليها، وقيل أيضًا: حال مِنْ (هُم) في ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ﴾، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنّهم وقتَ الإنذارِ غيرُ كاظمين[1]. وأيًّا كان الإعراب، ففي التّعبير دلالةٌ على أنَّ الظّالمين يجتمع عليهم يوم التّلاق هولان: هولُ يومِ الحساب نفسِه، وهولُ كونِ قلوبهم لدى حناجرِهم، وهم كاظمون عليها، ما يعني: أنّهم في هولٍ مضاعفٍ، وكَربٍ مُركَّبٍ.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾:

التّعبير بقوله: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ كنايةٌ عن صعوبة أهوال يوم التّلاق، واشتدادِ فَزَع النّاس واضطرابِهم فيه، وبلوغِه في ذلك مبلغًا لا تتحمَّلُه قلوبُهم، ولا تطيقُه أفئدتُهم، فترتفع عن أماكنها حتّى تصلَ إلى حناجرهم وحلاقيمهم وصولًا حقيقيًّا، لأنّ الكناية ليس فيها ما يمنع من إرادة المعنى الحقيقيّ؛ بل إنّها تُعطي المعنى بدليله كما هنا.

ليس في الكناية ما يمنع من وصول القلوب إلى الحناجر على سبيل الحقيقة

نُكْتَةُ فصلِ جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾:

جاءت جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾؛ لأنّها تُنَزّل منها منزلةَ بدلِ الاشتمال، وذلك أنَّ تِلْكَ الحالَةَ تَقْتَضي أنْ يسْتَشْرِف الظّالِمونَ إلى شَفاعَةِ مَنِ اتَّخَذوهُم ليشْفعوا لَهُم عِنْدَ الله، فلا يُلْفون صَديقًا ولا شَفيعًا[2]، ما يعني: أنّها فُصِلت عنها لكمال الاتّصال، الذي تُنزّل فيه الجملةُ الثّانيةُ ممّا قبلها منزلةَ التّابع من متبوعه، فتُفْصَل عنها لما بينهما من اتّصال معنويّ قويّ، يستغنيان به عن الواصل اللّفظيّ.

بلوغ القلوب الحناجر يدفع الظّالمين إلى استشراف مَنْ يشفعُ لهم فلا يجدون

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 157، والسّمين، الدّرّ المصون: 9/ 467.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ هي النّافية العاملةُ عملَ (ليس)، وأوثِر النّفيُ بها لأنَّ من خصائصها نفيَ الجُمَل الاسميّة والفعليّة، كما أنَّها آكدُ في النّفي من (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لاختصاص (ليس) بنفي الجُمَل الاسميّة فقط[1]، والنّفيُ بـ ﴿مَا﴾ أنسب هنا؛ لأنّها تُفيد بمعناها ومبناها المختوم بألف المدَّ نفيَ أن يكون للظّالمين حميم أو شفيع يوم التّلاق نفيًا قاطعًا لا حدود له.

لن يكون للظّالمين حميمٌ ولا شفيعٌ يوم التّلاق بصورة قاطعة

معنى اللّام في ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الاختصاص أو الاستحقاق، وفيه دلالةٌ على أنَّ الظّالمين دون غيرهم مِنْ خَلْق الله لن يكون لهم شفعاءُ ولا أحبّاءُ يمكنهم الدّفاعُ عنهم والشّفاعةُ لهم عند الله يوم التّلاق؛ بسبب ظُلمهم وعدمِ استعدادهم لهذا اليوم، وعصيانِهمُ الرّسولَ الذي أنذرهم باقترابه.

الظّالمون دون غيرهم من الخَلْق لن يكون لهم حميمٌ ولا شفيعٌ يوم التّلاق

معنى (أَلْ) في (الظّالمينَ):

(أَلْ) في (الظّالمينَ) للاستغراق وتعريف الجنس، وأوثِر التّعبيرُ بها ليَعُمَّ البَيانُ كُلَّ ظالم، أيْ: مُشْرِكٍ، فيَشْمَلُ الظّالمينَ المُنْذَرينَ، ومَنْ مَضَى مِنْ أمثالِهم[2]، ويُحذِّر المخاطَبين ومَنْ يأتي بعدَهم مِن أن ينهجوا نهجَهم، أو يسيروا على منوالهم.

بلوغ القلوب الحناجر سيحصل لجميع الظّالمين

دلالة التّعبير بـ (الظّالِمينَ) دون (الكافرين):

آثَر البيانُ الكريم التّعبير بـ (الظّالمينَ) دون (الكافرين)؛ للتّخسيس بأثر الكفر والتّنفير منه، والتّشنيعِ بهم، والدّلالةِ على استحقاقهم ما هم فيه من هولٍ واضطرابٍ وفزعٍ؛ لأنّهم ارتكبوا

الكافرون ارتكبوا بكفرهم أبشعَ أنواعِ الظّلم وأشنعَها

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 114.

بكفرهم أبشعَ أنواعِ الظّلم وأشنعَها، وليكون البيانُ شاملًا الكافرين وكلَّ الظّالمين على اختلاف أنواعهم وجناياتهم، كما أوثِر التّعبير بصيغة الاسم المشتق؛ لدلالته على عراقتهم في الظّلم[1]، وثبوتِهم عليه، وتمسُّكِهم به حتّى الممات.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾:

﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ في قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر لـ ﴿مَا﴾ النّافية، وأوثِر تقديمُه على الاسم المجرور بحرف الجر ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾؛ لأجل التّسبيب للعقوبة ببيان سبب الاستحقاق، ولأجل التّعجيل بمساءة الظّالمين، وقطعِ رجائِهم في أن يكون لهم حميمٌ أو شفيعٌ في ذلك اليوم العصيب، وفيه ما لا يخفى من تنفير المتلقّي من الظّلم بمعناه الواسع، الذي يشمل الكفرَ وغيره.

مِن أغراضِ التّقديم تعجيلُ المساءة للظّالمين، والتّنفيرُ من الظّلم

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ هي البيانيّة المُؤكِّدة عدمَ وجودِ صديقٍ حميم، ولا شفيعٍ حبيب للظّالمين يوم التّلاق، بأيِّ حالٍ من الأحوال.

نُكْتَةُ تنكير ﴿حَمِيمٍ﴾ و﴿شَفِيعٍ﴾:

أوْثِر تنكيرُ ﴿حَمِيمٍ﴾ و﴿شَفِيعٍ﴾ لما يُفيدُه تنكيرُ الاسم الواقع في سياق النّفي من العموم الذي يشمل كلَّ المُحِبّين والشُّفعاء أيًّا كانوا، ما يعني: أنّ الظّالمين لن يكون لهم حميمٌ ولا شفيعٌ من الملائكة، ولا من الجنِّ، ولا من البشر، ولا من الأنبياء والمُرسلين، ولا من غيرهم.

لن يكون للظّالمين حميمٌ ولا شفيعٌ من الملائكة ولا من الجنّ ولا من البشر

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ حرفُ عطفٍ يُفيد الاشتراكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 31.

الحميم والشّفيع ينتفي وجودُهما يوم التّلاق

في الحُكْم، أوثِر عطفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ على ﴿حَمِيمٍ﴾ به؛ للدّلالة على اشتراكهما في الانتفاء، إذ لو اكتفى البيانُ بالحميم لفُهم إمكانُ وجود الشّفيع وعدمِ انتفائِه، فجيءَ بالثّاني معطوفًا على الأوّل بالواو؛ للدّلالة على انتفائهما معًا يوم التّلاق.

معنى (لا) في ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾:

النّفي بـ(لا) يمنع توهُّمَ وجودِ الشّفيع يوم القيامة

(لا) في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ حرفُ نفي، عبَّر به البيانُ ولم يكتف بـ ﴿مَا﴾ العاملةِ عملَ (ليس)؛ لتأكيد نفي وجود الشّفيع، كما تأكَّد نفيُ وجودِ الحميم، إذ من الممكن أن يُتَوهَّمَ وجودُ الشّفيع المُطاعِ إذا لم يتمّ التّعبير بـ (لا) الذي يمنع وجودُه في التّركيب هذا الاحتمالَ، وينفيه نفيًا قاطعًا لا حدودَ له أيضًا.

نُكْتَةُ تقديم الحميم على الشّفيع:

الحميم يُبادر من غير طلب، أمّا الشّفيع فلا يُبادِر غالبًا إلّا بعد طلب

سبق القول بأنّ الحميم: هو القريب المُشْفِق الذي يَحْتَدُّ حمايةً لذَويه، ويكون من خاصّة الرّجل ومُحِبّيه[1]. والشّفيع: هو من يُلْتَمَس منه العَونُ والمساعدةُ[2]. وقَدَّمَ النّظمُ الأوّلَ؛ لأنّه أكثرُ حرصًا وأشدُّ قُربًا، كما أنَّ مبادرتَه تكون من غير طلب، بخلاف الشّفيع الذي قد لا يُبادِر بالشّفاعة، ولا يقوم بها - غالبًا - إلّا بعد طلب.

نُكْتَةُ وصفِ الشّفيع:

ذِكرُ الصّفة في سياق النّفي يُفيد انتفاءَها مَرّتين، من وجهَين مختلِفَين

وصف النّظمُ الشّفيعَ في قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ بجملة ﴿يُطَاعُ﴾؛ ليكون النّفي شاملًا الموصوف والصّفة، وبه يتحقّق نفيُ الصّفة مَرّتين، إذ "يحتمل أن يكون المنفيُّ الشّفيعَ الذي هو الموصوف، وصفتَه وهي الطّاعة، ويحتمل أن يكون المنفيُّ الصفةَ وهي الطّاعة، والشفيعُ ثابتٌ. قال ابن المُنَيّر: "إنّما جاء الاحتمالُ من دخول النّفي على مجموع الموصوف والصّفة، ونفى المجموع، كما يكون بنفي كلّ

(1) الرّاغب، المفردات: (حمم).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفع).

واحد من جُزئيه، وكذلك يكون بنفي أحدِهما، على أنّ المراد هنا نفيُ الأمرَين جميعًا، وفائدةُ ذِكْر الموصوف أنّه كالدّليل على نفي الصّفة؛ لأنّه إذا انتفى الموصوف انتفت الصّفة قطعًا، فكأنّه نفى الصّفة مرّتين من وجهين مختلفَين"[1].

نُكْتَةُ بناء ﴿يُطَاعُ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

جيء بالمضارع: ﴿يُطَاعُ﴾ مبنيًّا لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للدّلالة على عدم قَبول شفاعةِ أيِّ أحدٍ من الشّافعين -إن وُجِدوا وطَلَبَهم الظّالمون للشّفاعة-؛ لأنّهم "يكونون في هذا اليوم محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم؛ بسببِ ظُلْمِهم وإصرارِهم على كُفْرِهم بالله ﷻ"[2]، وعدمِ طاعتِهمُ الرّسولَ المنذِرَ باقتراب يوم التّلاق.

الظّالمون يكونون محلَّ غضبِ الجميع ونقمتِهم يوم التّلاق

بلاغة الكناية في قوله: ﴿يُطَاعُ﴾:

وَصْفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ بجملة: ﴿يُطَاعُ﴾ كنايةٌ عنِ امتناع الشّفيع عن الشّفاعة؛ "لأنّه يعلم أنّه لو شفع ما أُطيعَ فهو لا ينفع، وقد يشفع في بعضهم بعضُ المُقَرّبين لعلامة فيهم، يحصل بها اشتباهٌ يُظَنّ بهم أنّهم ممّن يستحِقّ الشّفاعة، فيُنَبَّهُ على أنّهم ليسوا بذلك، فيبرأ منهم"[3].

الظّالمون تجاوزوا الحَدّ فلا تُقبل فيهم شفاعة الشّافعين

فائدة الجملة الخبريّة:

اصطفى النّظمُ الأسلوبَ الخبريّ للتّعبير عن قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾، بدلًا من النّهي عن الظّلم -الذي يعني الكفر- بصورة صريحة، لما يمتاز به من توجيه المخاطَبين إلى معاملته معاملةَ الخبرِ المقطوعِ بحصوله، المُؤكّدِ وقوعُه يومَ التّلاق من غير مناقشة ولا جِدال، كأنّه وقع فعلًا، وحصل حصولًا أكيدًا،

الأسلوب الخبريّ يمتاز بجمعه بين دلالة الخبر وفائدةِ الإنشاء

(1) ابن المُنَيّر، الانتصاف من الكشّاف: 4/ 158.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 275.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 32.

كما أنّه يجمع بين النّهي عن الكفر، والإعلامِ بعاقبته، و بيانِ جزاءِ مُرتكبيه يومَ القيامة، وذلك أكثر تأثيرًا في الموعظة، وأنجعُ في الزّجر والنّهي.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الآزفة والحساب والبعث:

ألفاظٌ تصف يومًا واحدًا، لكن تختلف دلالتُها باختلاف سياقاتها

ثلاثتُها من أسماء يوم القيامة، لكنّ الأوّل روعيَ في تسميته شدّةُ الاقتراب والدّنو، بما يثير المخاطَبين إلى ضرورة الاستعداد له، وتركِ التّغافل عن التّوبة والتّسويف بها.

والثّاني: روعيَ في تسميته جزئيّةُ الحساب التي هي"أعظم ما يقع في يوم القيامة، وأشدّه وقعًا فى القلوب؛ لكونه الكاشف عن حال المرء"[1]، كما أنّ وقوع الحساب مُفصِحٌ عن تحقق القيام[2].

والثّالث: روعيَ في تسميته جزئيّةُ البعث، التي هي أوّل ما يحدث في القيامة، وكلّ ما فيه من أحداث وأهوال يأتي تبعًا لها، فمن أنكرها أنكر ما في يوم القيامة كلّه.

البعث والحساب واقعان لا ريب فيهما

ولمّا كان السّياق للإنذار باقتراب يوم التّلاق؛ بقصد تحذير النّاس بعامّة، ومُنكريه بخاصّة من الغفلة عنه، والتّسويفِ في التّوبة، والإقلاعِ عن الكفر الذي تبلغ قلوبُ فاعليه فيه حناجرَهم، وليس لهم من دون اللّه حميمٌ ولا شفيع؛ ناسبَ التّعبيرُ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾؛ لدلالته على شدّة الاقتراب، وحتميّةِ الوقوع، بجانب تأكّد حصولِ البعث والحساب والعذاب، وغيرِ ذلك ممّا أخبر القرآنُ بحصوله فيه.

(1) حقّي، روح البيان: 5/ 346.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 399.

الحَنْجَرة والحُلْقوم:

الحَنْجَرَة: هي رأس الغَلْصَمَة من الخارج، ومعناها: فراغٌ مستطيلٌ كأنّه قناة، يمتد في جَوْفٍ كثيف، يقال له: الحُنْجورة والحَنْجَرة[1].

الحَنْجَرة رأس الغَلْصَمَة من الخارج، والحُلْقوم هو مجرى النّفس والسّعال

أمّا الحُلقوم: فهو مجرى النَفس والسّعال من الجوف، وهو أطباقٌ غراضيف (جمع غضروف)، ليس دونَه من ظاهرِ باطنِ العُنُقِ إلّا الجِلْد، وطَرفُه الأسفل في الرّئة، وطَرفُه الأعلى في أصل عَكَدة اللّسانِ، ومنه مخرج النّفس والرّيح والبُصاق والصّوت، وأعلاه الحَنْجَرةُ، يليها إلى أسفل: القَصَبةُ الهوائيّةُ وشُعَبُها[2].

فَزَعُ الظّالمين يومَ القيامة لا حَدّ له

ولمّا كان السّياقُ لبيان أهوالِ يوم الآزفة وشدّته؛ كان التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ أنسبَ؛ لدلالته على أنَّ القلوب تنخلع من أماكنها، وتتحركُ صاعدةً لتصلَ إلى أبعد مدًى يمكن أن تصل إليه داخلَ القَصَبة الهوائيّة، وهو أمرٌ يجعل مَنْ يحصل له ذلك في حالة شديدة من الاختناق والألم، فلا هو يموت، ولا هو يستطيع التّنفُّسَ بسلاسة، فيكون فَزَعُه وكَرْبُه يوم التّلاق مُركَّبا.

الحميم والشّفيع والوليّ والنّصير:

الحميم: هو القريب المُشْفِق الذي يَحتدُّ حمايةً لذويه، ويكون من خاصّة الرّجل ومُحبّيه[3].

انتفاءُ وجودِ الحميم والشّفيع يعني انتفاءَ وجودِ غيرِهما

والشّفيع: هو من يُلْتَمَس منه العَونُ والمساعدةُ[4]. والوليُّ: مَن يخلص في مَودّته ومحبّته. والنّصير: من يقوم بالمعونة والتّقوية، وقد لا تُمكن النُّصْرَة مَعَ حُصول الولاية[5].

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنجر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حلقم).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (حمم).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شفع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 189.

ولمّا كان الحديثُ معقودًا لبيان أهوال يوم التّلاق الذي يتلاقى فيه الناسُ ويبصر بعضُهم بعضًا، ناسبَ نفيُ وجودِ (الحميم والشفيع) في هذا اليوم؛ لكونهما الأقرب والأحرص، لئَلّا يُتَوَهَّمَ وجودُهما أو وجودُ أحدِهما، وليُفهمَ من انتفائهما انتفاءُ وجودِ غيرهما من الأولياء والنّاصرين وغيرهم؛ لأنّ هذا اليوم لا ينفع فيه سوى الإيمان بالله، واتِّباعِ الرّسول المُنذِر باقترابه، والباقياتِ الصّالحات التي أَكْثَر منها مَنْ أراد الاستعداد له.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»